الأغلال

للشاعر الفيلسوف رابندرانات طاغور الهندى

بقلم الأديب شكرى محمد عياد

« سرقة من خزانة الملك ! »

ذهبت هذه الصيحة تطوى المدينة طيا ؛ لا بد أن يقبض على السارق حتى لا يصيب قائد الحرس أذى

وكان فاجارسن قد هبط إلى الثغر غريباً عن أهله ليبيع جياداً فى المدينة ؛ فسطت عليه عصبة من اللصوص سلبته كل ما كسب ، وألجأته إلى أطلال معبد مهدم خارج أسوار البلدة . فألقوا عليه التهمة ، واقتادوه مغلالا إلى السجن مجتازين به شوارع المدينة

وكانت « شياما » المتحيرة ذات الجمال الفتان جالسة فى شرفتها تطل فى تراخ على الجمع المار . فإذا هي ترتعد فجأة وتصيح بوصيفتها : « وا أسفا ! من ذلك الشاب ذو الوجه النبيل والجمال النورانى ؟ ذلك الذى يرسف فى الأغلال كأنه لص ؟ سلي رئيس الجند باسمى يأت به إلىّ »

وجاء رئيس الحراس بالسجين وقال لشياما :

«ليس فى الوقت متسع لإجابتك — ياسيدتى — إلى ما ترغبين ؛ فعلىّ أن أهرع إلى الملك إطاعة لأمره »

ورفع « فاجارسن » — سريعاً — رأسه ، وصاح :

« من أغراك يا امرأة بأن تأتى بى من الطريق لتسخرى منى بفضولك العجيب ؟

فقالت شياما :

« أسخر منك ؟! لحبيبٌ إلىّ أن أنزع حُليّ فأضع مكانها أغلالك ! »

ثم التفتت لرئيس الجند وقالت :

« إليك كل ما ملكت يميني وأطلقه حرا »

فانحنى الرجل وقال :

« ليس الأمر فى وسعي ؛ لابد من ضحية نطفئ بها غضب الملك »

فتوسلت إليه شياما قائلة :

« إننى لا أطلب للسجين غير مهلة يومين »

فابتسم رئيس الجند ووافق

وفي نهاية الليلة الثانيـة من اعتقال فاجارسن قرأ السجين صلواته ، وجلس اللحظة الأخيرة يكتب وإذا بالبـاب يفتح وبالمرأة تدخل حاملة فى يدها مصباحاً . ثم أشارت لخل الحارس وثاق السجين ، فقال الشاب :

« لقد جئتِ إلىّ بهذا المصباح — أيتها المرأة الرحيمة — كما يطلع الفجر بنجمة الصبح بعد ليلة حمى وهذيان »

وصاحت شياما :

« رحيمة حقا ! » وانفجرت ضاحكة حتى سالت من عينيها الدموع ، وصرخت قائلة :

« ليس بين أحجار هذا السجن ما هو أصلب من قلب هـذه المرأة وأقسى . » وأمسكت بيده

السجين فاقتادته خارج الأبواب

* * *

أشرفت الشمس على ضفاف الفارونا ، وكان الزورق على المرسى ، قالت شياما :

« تعال معى فى هذا الزورق أيها الشاب النازح ، وحسبك أن تعلم أنى قطّعت كل أغلالك ، وأنى معك فى هذا القارب »

وانزلق القارب فى هينة ولين ، وغردت الطيور فى مرح وحبور ، وقال قاجارسن :

« خبرينى يا غرامى ! بأى ثروة اشتريت حريتى ؟ » فقالت شياما :

« هيه ! ... ليس الآن ... »

* * *

تكبدت الشمس السماء ، وعادت نساء القرية إلى دورهن وثيابهن تنز بعد الاستحمام ، وجرارهن ممتلئة بالماء ؛ وانفضت السوق فالتمع فى الشمس طريق القرية الخالى ...

وهبت نفحات الظهر الدافئة فأزاحت النصيف عن وجه شياما . فهمس قاجارسن فى أذنيها :

« لقد أخرجتنى من غل يزول إلى غل يدوم مدى الحياة . ذرينى أعرف كيف فعلت : »

فأسبلت المرأة النصيف على وجهها وقالت :

« ليس الآن يا حبيبى ... »

* * *

وأغطش الليل ، وراح النسيم الوانى ، والتمع الهلال العليل على حواشى الماء ذى السواد الحديدى

وجلست شياما فى الظلام ، وأراحت يدها على كتف الشاب ، ونام شعرها بين ذراعيه وهمست فى خفوت :

« لقد أتيت من أجلك أيها الحبيب أمراً إدًّا ؛ بيد أن إخبارك به أشد وأقسى . لأكشفنه لك فى كلمات قصار : لقد حمل عنك أغلالك بوتيجا ، وهو فتى شفّه الحب وأضناه الهوى ؛ وادّعى الجريمة وأهدى إلىّ حياته ... فى سبيل حبك اقترفت أعظم ما اجترمت يا أعز حبيب ! »

كانت تتكلم والهلال الشاحب يضوى ويزول ، والطيور تأوى إلى أوكارها فتسلم الغابة لسكون عميق

وانسل ذراع الشاب فى هدوء من حول خصر المرأة وتصلّد الصمت من حولهما واستحجر فى الآذان ...

وجثت المرأة فجأة عند أقدامه ، وتعلقت بركبتيه صائحة :

« غفرانك أيها الحبيب غفرانك ! دع العقاب لله هو يجزينى على ما قدمت يداى ! »

وانتزع قاجارسن ساقيه بعيداً ، وصاح فى صوت أبح : « تشرين حياتى بثمن الخطيئة ! لعنة الله على كل نَفَس من أنفاس حياتى ! »

وهب واقفاً ، وقفز إلى الشطّ من القارب ، وانماث فى ظلام الغابة ، وظل يسير ويسير حتى انقطع به الطريق ، واستوقفته الأدغال المتكاثفة والأشجار الملتفة

وجلس على الأرض متعباً ... ولكن من هذا الذى تبعه فى صمت طوال الطريق المظلم ، والذى يقف الآن كالشبح وراءه ؟

وصاح قاجارسن : « هلا تركتنى ! »

وهوت عليه المرأة فى لحظة ، وأغرقته بدلها ، وغطته بشعرها المهدل ، وأنوابها الجرارة ، وأنفاسها المترددة ، وصاحت فى صوت خنقته العبرات المحتبسة :

« لا . لا . لقد اجترمت لأجلك فاقتلنى إذا شئت ؛ دعنى أموت بيديك ! »

وارتعش ظلام الغابة الراسخ لحظة ، وسرى الرعب فى جذور الأشجار المتغلغلة فى جوف الأرض وارتفعت تحت جناح الليل آهة مكتومة ، وأنفاس مضطرمة ، وسقط على الأوراق الذاوية جسد

* * *

توهجت شمس الصباح على مسلة المعبد البعيد ، وبرز فاجارسن من الغاب ، وظل النهار بطوله يهيم بجوار النهر صالياً بحرارة الشمس لا يفتر لحظة

وفى الليل ارتد إلى القارب على غير هدى ، فوجد على الفراش سواراً ، فقبض عليه وضمه إلى قلبه حتى أدماه ، وانبطح على الوشاح الأزرق المتكوم فى الزاوية فأخفى وجهه بين طياته ؛ وأراد أن يجتر من نعومة حريره ، وشذا عبيره ذكرى جسد حبيب...

وترنح الليل فى صمت ثقيل راجف ، واختفى القمر وراء الأشجار ، ووقف فاجارسن مادا ذراعيه إلى الغاب مناديا :

« تعالى إلىّ يا غرامى ! تعالى إلىّ ! »

وانبعث من الظلام فجأة شبح وقف على شفير الماء . « تعالى إلىّ يا غرامى ! تعالى إلىّ ! »

« لقد جئت ياحبيبى ، ولم تستطع يداك العزيزتان إزهاق روحى ، فقد قُدِّر على أن أعيش »

وجاءت شياما ... ووقفت بازاء الشاب فنظر فى وجهها ، وتقدم خطوة ليضمها بين ذراعيه . ثم قذفها بكلتا يديه وصاح

« لماذا ؟ آه ! لماذا عدت ؟ »

وأغمض عينيه ، وأشاح بوجهه ، وقال

« اذهبى ... اذهبى ... دعينى »

ووقفت المرأة لحظة ، ثم ركعت عند قدميه وانحنت كثيراً . وهبت فيممت نحو الشط وغابت فى ظلام الغاب كلم انبعث من نوم . وجلس فاجارسن فى القارب صامتاً وحده ، وقلبه يدمى

ترجمة شكرى محمد عياد
كلية الآداب